صفحات مطوية

عبد الرحمن زغلول

« تحت هذا العنوان ننشر تعريفا بأستاذ من أكبر الأساتذة الذين خرجتهم دار العلوم ، وكان له فى الثقافة العربية الحاضرة أثر عرفه تلاميذه فى دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعى ومدرسة اللغات الشرقية ببرلين . وقد اعتمدنا فى الحصول على هذه المعلومات على أوثق المصادر وخاصة أفراد أسرة الأستاذ المترجم له وقد تولى جمع هذه المعلومات زميلنا الفاضل محمد رشيد بركات المدرس بمدرسة بنها قادن الابتدائية . وسنتبع ذلك ، فى الأعداد الآتية ، بنشر بعض الآثار الأدبية للأستاذ عبد الرحمن زغلول »

نسبه :

هو عبد الرحمن بن الشناوى افندى زغلول ابن الشيخ ابراهيم زغلول ؛ وأمه السيدة عائشة بنت عبد الله افندى بركات وينتهى نسبه الى أبى بكر الصديق فالأستاذ — كما يتبين من نسبه — قد نسل من أكرم أسرتين فى الدلتا الشمالية ، وحسبك أن سعدا الزعيم الخالد عمه . وأن فتح الله بركات باشا ، وعاطف بركات باشا ابنا خاله ، لتعلم أنه من الحسب فى الذروة والسنام .

وأبوه الشناوى افندى زغلول كان رئيسا لمجلس القضاء فى مركز دسوق ، ثم فى مركز زفتى ؛ وخاله عبد الله افندى بركات كان ناظرا لقسم دسوق ، فى وقت كان فيه حكام القطر من الأتراك ، إلا نفرا كانوا يصطفون من بين أبناء البيوتات المصرية العريقة .

وجده الشيخ ابراهيم زغلول ، كان وجيها فى قومه أثيرا لديهم ، واسع الثراء ؛ وكان إلى ما عرف من سخائه وجوده — حتى انه كثيرا ما كان يؤدى

عن أتباعه وأهل بلده أموال الحكومة — شديدَ المحافظة على كرامته ، يبادر إلى دفع طيف المهانة عن نفسه ، بأشد أنواع العنف والقسوة ، حتى مع أولئك الأتراك الذين كانوا يحكمون فلا مرد لحكمهم ، لا يبالى بعد ذلك أن يكون ما يكون

ولما كان الولد سر أبيه ، كانت هاتان الخلتان — الجود ، وإباء الضيم — أبرز صفات المرحوم عبد الرحمن زغلول .

* * *

مولده ، ودراسته :

ولد عبد الرحمن زغلول سنة ١٨٦٦ فى إبيانه من أعمال مركز فوة بمديرية الغربية ؛ ولما بلغ أشده التحق بمدرسة دار العلوم (ولعله كان قد انتسب إلى الأزهر ليعد نفسه لدخول تلك المدرسة) ، بيد أنه لم يلبث أن تخلى عن الدراسة ، وعاد إلى ابيانه فعين عمدة لها . ولكنه كان مشغوفا بالعلم ، فلام نفسه على مافرط ، ثم عاد وانتسب إلى دار العلوم مرة أخرى ، ووافق ذلك التحاق الطالب عاطف بركات بها ، فسارا معا جنبا إلى جنب فى طليعة الصفوف ، حتى تخرجا فيها فى عام ١٨٩٥ .

ولقد شغل الأستاذ عبد الرحمن — عقب تخرجه — مهنة التدريس فى شتى المدارس فى مصر وفى الخارج : فكان مدرسا بمدرسة الصنائع بالمنصورة ؛ ثم مدرسا بمدرسة المعلمين التوفيقية ؛ ثم أستاذا للغة العربية بمدرسة اللغات الشرقية فى برلين (وقد انتهز هذه الفرصة فحذق لغة البلاد ، وتثقف ثقافة ألمانية) ، ثم عين مفتشا للكتاتيب فى وزارة المعارف (وله تقريرات عاب فيها على هذه الكتاتيب إهمالها تربية الناشىء تربية جسمية وخلقية ، ودعا إلى الأخذ بعدة وسائل يراها أقوم السبل إلى إصلاح الاخطاء الشائعة فى ذلك النوع من التعليم)

وعين فى سنة ١٩٠٥ أستاذا للإخلاق والإنشاء فى مدرسة المعلمين الناصرية (دار العلوم) ، وعهد اليه بطلبة الفرقة التحضيرية الذين كانوا يفدون من الأزهر ، فكان يتولاهم بما حباه به الله من مضاء فى العزم ، وحزم فى المعاملة ، وقدرة على تملك زمام طلبته ، وتوجيههم إلى حيث يريد ، فلا ينقضى عامهم هذا إلا وقد صقلوا صقلا مدرسيا دقيقا .

ونقل فى سنة ١٩١٠ مدرسا فى مدرسة القضاء الشرعى ، وفيها رغب فى أن يحال إلى المعاش .

مكث بضعة أعوام يتنقل بين إبيانه ومنية المرشد والقاهرة حتى اختاره ربه إلى جواره فى سنة ١٩١٩

أخلاقه

عطفه على الفقراء ، وإحسانه اليهم :

وإليه — رحمه الله — كان ينتهى كثير من كرم السجايا ، ونبل الخلال : فلقد كان جوادا كريما ، ينقّب عن المحتاجين فيبدؤهم بالعطاء قبل أن يبدءوه بالسؤال ؛ ما سئل قط إلا أعطى عطاء من لا يخشى الفاقة ، منبسط الأسارير ، باشّ الوجه (كأنك تعطيه الذى أنت سائله)

ولو لم يكن فى كفه غير روحه لجاد بها ؛ فليتق الله سائلهُ !

ولقد سار يوما على شاطىء النيل ، فعرض له فى طريقه رجل ، يسأله شيئا يتقى به الليل إذا أبرد ؛ فأسرع إلى معطفه — ولم يكن قد لبسه أكثر من بضعة أسابيع — فنزعه ، وألقى به إليه ، ثم واصل سيره ، كأنه لم يفعل شيئا .

قوة ارادته

أما قوة إرادته فكانت مضرب الأمثال : وقف مرة بين تلاميذه يلقى عليهم درسا فى « قوة الارادة » ، ويبين لهم أنها العدة والعتاد لمن حاول أن تكلل أعماله بالنجاح فى هذه الحياة ، وأن المدرسين هم أجدر الطوائف بأن يأخذوا أنفسهم بذلك النوع من التهذيب . وهنا انبرى له طالب خبيث ، وتقدم إليه ، يسأله أن يريهم آية فى نفسه ينسجون على منوالها : فهش فى وجه ذلك الطالب وبشّ ، وقال : سل ما شئت ، فانى نازل حيث تريد . وكان الطالب يعلم أن للأستاذ ولعا شديدا بالتدخين ، حتى انه ليشعل فى اليوم مائة لفافة ، لا ترى يده خلوا من إحداها إلا حين يقف للدرس او الصلاة — فقال : أن تمتنع عن التدخين ، فما كان أسرع يد الأستاذ تمتد إلى جيبه فتخرج علبة اللفائف ، ثم تهوى عليها

أصابعه تمزيقا وإتلافا ، وأخيرا يلقى بها الى حيث لايعود إليها .

ولقد لمح عقب ذلك ، أستاذنا الجليل الشيخ فخر الدين ، وبيده لفافة يشعلها ، فاحمرت حدقتاه ، وظهر على وجهه شتى الانفعالات النفسية . ثم قال : أتدرى ؟ إنّ رشفة مما فى يدك لهى تزن عندى الدنيا بما فيها . قال : فما يحول بينك وبينها ؟ قال : عهد قطعته ، وعلىّ الوفاء به !

رجوعه إلى الحق

أما تواضعه فهو — إلى الآن — حديث كل من ربطتهم بالأستاذ صلة ، أو جمعهم به مجلس . وما علمت أحداً أسرع منه رجعة إلى الحق ، حين يبدو له وجه الخطأ فيما قال او فعل .

وقف مرة يوزع على طلبته كراسات الإنشاء بعد تصحيحها ، فلم ترقه كراسة أحدهم ، فانهال عليه لوما وتقريعا ، ثم ألقى إليه بها . وخرج عقب الدرس فظن أنه قد بالغ فى لوم الطالب ، وإيلامه أمام إخوانه ، إلى حد ليس له فيه حق ، فعاد فى الحصة التالية — وقد شغل الدرس مدرس آخر ، فاستأذنه — وقدم اعتذاره إلى الطالب عما بدر منه على مرأى ومسمع من الطلبة جميعا !

شغفه بتهذيب الناس ونشر الفضيلة :

ولقد كان الأستاذ سقراطى النزعة ، ينتهز الفرص أو يخلقها ، فيحاول أن يغرس فى النفوس حب الفضيلة ، وعمل الخير ، ويجتث منها جذور الرذيلة والميل إلى الشر ، وعكف على ذلك ، وحبس وقته عليه ، وكان فى أخريات أيامه ، — بعد أن أحيل إلى المعاش — أقصى ماتنزع إليه آماله فقد قضى هذه الفترة متنقلا بين ابيانة ومنية المرشد ، يرتاد المساجد ، ويندس فى غمار الفلاحين . فيحادثهم فى شئون شتى ، ويتخذ من لباقته فى التعبير ، ودرايته بطباع الناس ، أسهماً يسددها إلى غرضه ، فتقع حيث يريد .

وشغف أخيراً بزيارة كتاب منية المرشد ، ورأى فى أطفاله منبتا خصبا يستطيع أن يبذر فيه تعاليمه ، فتؤتى أطيب الثمرات . فكان يتعهد التلاميذ بأسئلة ، يرمى من ورائها إلى غرس خلق كريم ، أو استئصال خلة ممقوتة .

وأذكر : لقد قدم الى الكتاب ، يحيط به جمع من مشيخة القرية ووجهائها واختار من بين أطفال المكتب طفلا ألقى عليه الأسئلة الآتية :

قال : ما اسمك ؟ . . . واسم أبيك ؟ . . .

قال : وما صناعته ؟ — حلاق .

قال : فأى عملائكم أحب إليك ؟ وأثر لديك ؟

فنظر الطفل الى من صاحبوا الأستاذ فى زيارته ، وطفق يعدد أسماءهم واحدا واحدا ، عندئذ ثارت ثائرة الأستاذ ، وبدا الغضب جليا على محياه ، وأوسع الطفل لوما وتقريعاً ، جزاء ما ارتكب من النفاق . ثم مال الى التلاميذ يحذرهم من أن يحذو أحدهم حذو زميلهم ، ويقبح تلك الخلة ، ويرسمها لهم فى صورة من أنكر الصور . على أن عبارته — حين كان يقذف باللوم أولا ثم حين كان يقدم التحذير ثانيا — لم تخرج عن هدوئها ، وسلامتها ، وترتيبها ترتيبا منطقيا بديعا

دقة ملاحظته

وكان يغوص بنظره فيما حوله ، ويتغلغل فيه بفكره ، كما يغوص اللآل إلى قرار البحر ، ثم يعود محملا بأنفس اللآلىء ، وأندر الدرر .

من بين رسائله رسالة يقص فيها مشاهداته حين ركب الباخرة فى طريقة الى ألمانيا يحدثنا فى فقرة من فقراتها فيقول :

« وكان من بين الأطفال الذين بالمركب طفلة فرنسية ، غاية فى النشاط والذكاء ، تبلغ الخامسة من عمرها ، كانت هى التى تبدأ كل رجل وامرأة وطفل بالكلام ، حتى لقد انقضت بعض أوقات الأكل — حيث يجتمع المسافرون — والحديث متروك لها توجهه إلى من شاءت ، وتتنقل فيه كما أرادت ، وكانت — إلى هذا — كثيرة الحركة ، سريعة التنقل ، واكثر مايظهر ذلك على سطح المركب ، حين يصفو الجو ، وقد رأيتها حادثت كل كبير وصغير ، الا ذينك الطفلين الأخوين الانجليزيين . فانها متى اقتربت منهما لتلعب معهما — ابتعدا وأعرضا عنها ، ومتى دعتهما الحداثة وحب الحركة وما بين يديها من وسائل

اللعب الى الاقتراب منها — قطبت لها وجهها ، وأشارت إليهما بالابتعاد ، لا فى صورة خوف من أن يقع نزاع بينهم ، بل فى صورة أخرى . فإذا كان الاستشهاد بذلك مما يستقيم — صح لنا الحكم أن فى التربية الانجليزية عاملا على تمنع الانجليزى عن مخالطة سواه .

إنتاجه

وكان رحمه الله حركة دائبة فى العمل والإنتاج ، لا يترك فرصة تسنح إلا شغلها بما يجدى ويفيد . فله عدة رسائل :

إحداها يبحث فيها عن سيرة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، يقول عنها : « تناولت أكثرها من طبقات ابن سعد . وتوخيت فى رسالتى هذه — أولا وبالذات — عمر فى باطنه وحقيقته . »

ورسالة أخرى عن الجامع الأزهر ، يبحث فى أنظمته ، وعلومه ، ويدلى — فيما بين ذلك — بما يعن له من آراء فى إصلاحه

ورسالة ثالثة موضوعها تحرير المرأة ، كتبها يوم كان هذا الموضوع هو الشغل الشاغل لأذهان المصريين وألسنتهم وأقلامهم جميعا

ومن بين رسائله رسالة يسميها رسالة التلمذة .

وله عدا ما تقدم — قصة مصرية من تأليفه .

ولعل أنفس ما كتب رسالته فى علم الأخلاق ، يوم كان يتولى تدريسه فى دار العلوم ، وتلاميذه يحرصون عليها ، ويعدونها أثمن ما يقتنون .

ثم قصصه التى ترجمها عن الألمانية ، والقصة منها لا تعدو بضعة أسطر . وفى اعتقادى أنها لو نشرت — لكانت خير كتاب يحبب القراءة المنزلية إلى صغار التلاميذ . وله آثار أخرى . وكل هذه وتلك تحتاج الى دقة فحص ، وشدة عناية ، ومن أولى بذلك ، وأقدر عليه من حضرات الأساتذة أبنائه الذين تخرجوا على يديه فى دار العلوم ؟